البنى الأسلوبية للأعمال السيرذاتية

-بحث في خصوصية تشكيلاتها اللغوية وعناصرها الإبداعية-

الأستاذ : رشيد بن قسمية .

قسم اللغة العربية ، المدرسة العليا للأساتذة ، بوسعادة (الجزائر) .

البريد الإلكتروني :bgs.rachid@gmail.com

ملخص:

تأتي هذه الدراسة للبحث في خصوصية البناء الأسلوبي للأعمال السيرذاتية ؛ فهي تبحث فيما تتميّز به كتابة " الأنا" عن غيرها من صنوف الكتابة السردية من خلال آليات اشتغالها الداخلية ، وفي تشكّلاتها الخطية وحركياتها الإبداعية . وهي في ذلك تنطلق من فرضية أنّ النصوص السيرية تحتفظ في مجملها بخصوصية مائزة لنسقها اللغوي في طبيعته ودلالته .

وقد بسطت الدراسة الحديث في عناصرها البنائية التي تشمل اللغة التي لخصتها في عناصر ثلاث هي: العنوان ، والضمير، والأفعال . ثم تناولت البناء السردي الذي تقوم عليه ، لتعوج مسائلة بعدها عن ثنائيتي المكان والزمان ، ثم عن تأثير المرجعيات السياقية عليها ، لتحط رحالها أخيرها عند عنصر التخييل في هذا النوع السردي.

Résumé:

Cette étude essaie d’ examiner la spécifité de la structure stylistique de l’autobiographie ,donc , elle cherche les caractéristique de l’ecriture du «moi» à partir d'autres types d'écriture narrative, à travers ses mécanismes internes et ses formations linéaires. elle est basée sur l’hypothèse que les textes narratives gardent une particularité distinvtive soit dans leurs formations linguistique,ou dans leurs significations.

Cette étude a abordé ses éléments structurels, qui comprennent le langage qu'il résume en trois éléments: le titre, le pronom et les actes. Et puis elle s'est occupé de la structure narrative sur laquelle elle est basé, pour analyser l'influence des références contextuelles ,puis l'imagination comme un genre narratif

السيرة الشخصية أو الذاتية هي شكل من أشكال السرد يقوم به شخص واقعي بالكشف عن سيرة حياته من خلال كتابة إبداعية تدور حول حياته الذاتية وتاريخ شخصيته ، وتفاعل هذه الشخصية مع شخصيات أخرى أو عوامل المجتمع الذي تعيش فيه والإفادة منها . وهي في أقرب تعريفاتها : " نمط سردي حكائي ينتظم في فضاء زمكاني محدّد، يتولى فيه الراوي ترجمة حياة ذات خصوصية إبداعية في مجال حيوي أو معرفي. فيها من العمق والغنى ما يستحق أن يروى ليقدم تجربة يمكن أن تثري تجارب القارئ ، وتُخصب معرفته بالحياة من خلال الاطلاع عليها"[1] .

وفي هذا اللون السردي يسعى الكاتب إلى" انتخاب حلقات معينة مركزة من سيرة الحياة، وحشدها بأسلوبية خاصة تضمن له صناعة نص سردي متكامل ذا مضمون مقنع ومثير ومسلّ"[2] . فهذا الفن يعتمد في أساسه الفني على الانتقاء والترتيب[3] لإعادة بناء أدبية خاصة بالذات الفردية لصاحب السيرة ، مع مراعاة نمو وتطور هذه الذات ؛ وبعبارة أخرى يقوم الراوي بسرد أحداث منتخبة من حياته من خلال أسلوبية خاصة يضفي خلالها الصبغة الأدبية الفنية على الوقائع والأحداث .

وما دامت السيرة الذاتية تركيبا أدبيا مستحدثا للذات ، وعملية بناء جديدة لشخصية تتجاوز صاحبها . فمن المنهجية العلمية أن نتساءل:

- ما يميّز السيرة الذاتية عن غيرها من الأجناس السردية الأخرى القريبة منها في خصائصها الفنيّة ؟

- ما هي أسس البناء اللغوي لفنّها الكتابي ؟ وما هي قوالبه الإبداعية التي تتمظهر فيها تشكيلاته ؟

من المهم أوّلا أن نذكر بأن السيرة الذاتية في الأدب العربي تمظهرت في أشكال مختلفة عبرت عن عدم ثباتها على أنموذج واحد أو وضعية جامعة مانعة ؛ فلكل كاتب لغته ورؤيته الخاصة للحياة والحقيقة والتجربة ، لذا كان من الطبيعي أن تتباين أساليب الكُتّاب في رواية حياتهم ، " فليس في هذا المضمار أسلوب ملزم أو ديباجة ملزمة ، بل يكون الأسلوب فيه أكثر من أي مجال ، ظاهرة فردية " [4] . لكن في المقابل نجد أن النصوص السيرية تحتفظ في مجملها بخصوصية مائزة لنسقها اللغوي في طبيعته ودلالته . هذه الخصوصية هي التي سنحاول في هذه الورقات البحثية استكناه أبعادها الفنية وسماتها الجمالية الفارقة التي تؤثر في وعي القارئ وتفكيره .

1. اللغة:

لغة السيرة الذاتية تبنى على نظام أسلوبي يفارق أجناس السرد الأخرى ، فهي " جنس يمفصل العالم والأنا والنص، وهي على تماس مع التاريخ والسلطة والذات والتمثيل والإحالة فضلا عن اللغة التي تكتب بها "[5] . وعلى المؤدى السابق فالنص السيرذاتي هو نظام لساني تتفاعل بناه الداخلية لتؤسس لآلية اشتغال خاصة بهذه النصوص والتي سنحاول إجمالها في مقولات ثلاث هي : العنوان ، الضمائر، الأفعال.

أ. العنوان:

يشكل العنوان مدخلا أساسيا لقراءة الإبداع وتمثّله ؛ فهو يمثّل نصا موازيا له " مبادئه التكوينيّة، ومميّزاته التجنيسيّة... وهو بمثابة عتبة تحيط بالنص، عبرها نقتحم أغوار النص، وفضاءه الرمزيّ الدلاليّ؛ أي أنّ النص الموازي هو دراسة للعتبات المحيطة بالنص والعتبات هي المدخل الذي يؤهل المتلقي بأن يمسك بالخيوط الأوليّة والأساسيّة للعمل الذي يراد دراسته"[6] .

والعنوان في النص السيرذاتي هو نص فرعي يختزل النص كلّه ويقيم أوّل علاقة اتصال بين القارئ وصاحب السيرة ، ويمثل مدخلا واضحا لسبر كنهه . ويكون -في كثير من أحيانه- دليلا على كثير من الأمور الباطنية والرؤى والأفكار التي تُطرح في العمل ؛ فهو" مفتاح الكاتب/الكاتبة إلى عمله، وهو مفتاحنا إلى عقل كاتب/ كاتبة السيرة وقلبه/قلبها "[7]. أمّا وظائفه

فعديدة ، فنراه " يتنقل بين وظيفة تأسيسيّة، إلى إغرائيّة ، إلى انفعاليّة، إلى اختزاليّة تكثيفيّة . ويؤدّي وظيفة تحريضيّة، وأخرى أيديولوجيّة "[8] .

وكما أنّ وظائف العنوان تتعدد، نجد أنّ أشكاله تتنوّع ، فمنها ما يحمل دلالة مباشرة مثل: "ذكرياتي" لطاغور ، و"حياتي" لقاسم أمين ، و" حصاد السنين" لزكي نجيب محمود . أو رمزيّة مثل: "الخبز الحافي" لمحمد شكري ، و"عودة الروح" لتوفيق الحكيم ، و "غربة الراعي" لإحسان عباس . أو نراه يحمل اسمًا صريحًا مثل: "سارة" للعقاد ، و"إبراهيم الكاتب" للمازني . أو نجده يشير إلى مكان مثل: "شارع الطبالين" لمرغريت طاووس ، و"الدار الكبيرة" لمحمد ديب.

وتأتي أهمية العنوان لدى المتلقي من حيث يفيض عليه لونا الإثارة يجعله متطلّعا إلى الكشف عن المخبوء وتحليل الرموز لمحاولة الوصول إلى إجابات أثارتها تساؤلات وّلدتها إغوائيّة النص، وبذلك تتشكل أولى آللبنات التي تجمع القارئ بالنص ، ونمثّل لذلك بـ: "رحلة جبلية رحلة صعبة " لفدوى طوقان ، و " رحلتي في الجذور والبذور والثمر" لعبد الوهاب المسيري ، فكلا العنوانين يمسك بتلابيب القارئ ويشدّه شدّا لقراءة النص في محاولة منه لفهم وتفكيك هذه العناوين؛ "فالعنوان نقطة مركزيّة، أو لحظة تأسيس بكر تقلّ القارئ إلى داخل النص ، حاملا إشاراتٍ دالّة، وملامح موحية ، تعينه على الكشف والاستبطان "[9] .

ب. استخدام الضمائر:

أثارت الضمائر وموقعها في النصوص السيرذاتية شغف الدارسين باختلاف حقولهم المعرفية للوقوف على هوية النص واتصاله بصاحب النص حينما يتقمص ثوب نفسه . ويأتي ضمير التكلّم "أنا" سمة فارقة في أدب السيرة الذاتية يمنحها خصوصيتها النوعية ؛ فالكاتب نفسه الذي يحقق حضوره النصي تطابقا اسميا بين الكاتب والسارد والبطل ، و" يتحدّد ضمير المتكلم بوساطة تمفصل مستويين:

1.الإحالة : فليس للضمائر (الشخصية ضمير المتكلم /ضمير المخاطب) إحالة إلا داخل الخطاب في فعل التلفظ نفسه...

2. <u>الملفوظ</u> : إذ تشير الضمائر الشخصية للمتكلم إلى تطابق ذات التلفظ وذات الملفوظ "[10].

ويأتي توظيف ضمير الأنا غالبا على بناء الأعمال السيرية حضورا وإحالة ؛ فهو يمثل قطب الرحى في دلالاته على السارد وعلى سيرورة الأحداث في العمل الإبداعي ، لتكون المحصلة تطابقا بين السارد والشخصية الرئيسة في هذه الأعمال. ويظهر هذا الضمير أو ما يظهر في مطالع السير وفواتحها ؛ تقول فدوى طوقان: " خرجت من ظلمات المجهول إلى عالم غير مستعد لتقبلي . أمّي حاولت التخلص منّي في الشهور الأولى من حملها بي . حاولت وكرّرت المحاولة . ولكنّها فشلت"[11] . ويقول أمين معلوف: "أوّلا، بدأ بحثي بداية خاطئة : ذلك المشهد الذي عشته في سن الثلاثين ، وكان لا يفترض بي أن أعيشه أبدا..."[12].

وإذا كان توظيف ضمير المتكلم "أنا" " يضفي على كتابة الذات بعدا مائزا لطبيعتها الفردية ، فإنّ الكاتب نفسه قد يتقنع بضمائر أخرى، تخفف من حدة هذا الضمير وأنانيته شرط أن يعرف المتلقي ذلك كي لا تتحول العملية فنيا إلى سيرة غيرية، ويظل الميثاق السير ذاتي فيصلا بين المبدع والقارئ في مثل هذه الحالات"[13]. يقول زكي نجيب محمود: "... ففي هذه المجموعة من الأحاديث ، اجترار منسق ومدبر، لحياة أعطت فكرا وأدبا ، وظلت تعطي ستين عاما ، ولا يذكر صاحبها يوما أخذها فيه يأس أو ملل ، ولم يكن ليلومها لو قعد بها القنوط ، فهي حياة بشرية يعتورها ضعف الغرور، الذي يوهم الإنسان إنا بعد آن"[14].

ففي رأي البعض لا يقدر ضمير المتكلم لوحده التعبير عن عوالم الذات المتكلّمة والأزمنة وتفاصيل الحياة فلابد من التنويع الأسلوبي في توظيف ضمائر أخرى [15] . وتأتي الضمائر المقنعة لتبني بينها وبين ضمير الأنا "علاقة تبادل إرسال الخطاب بحيث يترك أحدهما المجال للآخر، لا ليلقي علينا الحدث من رؤية سردية مغايرة، ولكن فقط لإيهامنا بأن هناك خطابين متضافرين ومتمايزين"[16]. فضمير الغائب؛ " يساعد على الكتابة بنوع من الاستقلالية عن الأنا الضاغطة ، مما يؤدي إلى إنشاء مسافة فاصلة بين المؤلف والشخصية"[17].

ج. بنية الأفعال:

إنّ السيرة الذاتية في منجزها الكتابي ترتكز على جانب مدلولي يتلخّص في حديث الأنا ونقل تجربة حياتية بألوانها وأذواقها ، وآخر دالّيّ يتمثّل في مجموع البنى والعلائق اللغوية المكوّنة للنص. والجدير بالذكر في النصوص السير ذاتية أن بناء الأفعال فيها متكوّنا من " حركتين متناوبتين؛ حركة استرجاعية تذكارية ترتدّ إلى الماضي ، وحركة تأملية تلتصق باللحظة الآنية، والحركتان الزمنيتان تتناوبان داخل الشخصية وخارجها ، بشكل مطرد ؛ إذ ينسجم الزمن النفسي مع الزمن النحوي ، فتسيطر الصيغ الماضية على زمن الارتداد والتذكّر والصيغ المضارعة على الزمن الآني التأملي"[18]. فالأفعال بصيغها الصرفية الزمنية الماضي، الحاضر، المستقبل ، هي في حقيقتها خروج عن نمطية البنية الزمنية للسرد، وسعي إلى جعل العلاقة بين النص وقارئه أكثر فاعلية من خلال " تغير مسار الأحداث من الآنية إلى الماضوية ضمن مجال نصي أسسه مجموع علاقات نحوية وتركيبية متعلقة بجملة القوانين التي تضبط عملية البناء اللغوي "[19] ، إذ " ليس في ارتباط السيرة الذاتية بهذا الماضي ما يؤشر على انفصام صلتها بالحاضر؛ ذلك أن الأمر مرهون بمدى القدرة على الاحتفاظ بكمّ من الذكريات المختزنة والعمل على إخراجها إلى الواجهة، في مساحة ورقية يخالها الكاتب كافية للتعريف بالأنا عودة بها إلى فاعلية الزمن الحاضر كتابة وحضورا"[20] .

وفي الفعل الماضي يأتي الفعل الناقص "كان" فعلا مركزيا في بناء النصوص السيرية لدلالته الصيرورة المنقضية التي ترتبط بالحكي الاستردادي ، وفي امتداداته إلى الآنية في فعل الكتابة المنجز ؛ فهو " زمن نحوي وفيزيائي على السواء؛ فهو يحيل على الصيرورة المنقضية، وتجده يسردها بمنطق الفعل الناقص الدال على الزوال، ويؤرخ في ذات الآن لمراحل الحياة الفردية كما عيشت أو كما يستعاد عيشها على أية حال، أما الذات فنجدها عنصرا متفاعلا مع هذا الماضي؛ لأنه مجالها البنائي، فهي تظهر في السيرة الذاتية كهوية تامة على مستوى الاستذكار وناقصة على مستوى الحكي في آن"[21] . يقول إحسان عباس: " كان والده يملك كتابين اثنين لا ثالث لهما ، هما نسخة من القرآن الكريم ، قد دلق الحبر على بعض صفحاتها فصارت زرقاء ، ونسخة من تغريبة بني هلال .ولو أنّ سائلا سأله في أيّة مرحلة من حياته: هل كان والده متديّنا؟ لما وجد لديه إجابة حاسمة . كان والده يقضي أغلب وقته مسافرا ، ليشتري الحلال من شمال

فلسطين ويسوقه إلى سوق طولكرم ليبيعه ، ولهذا لم يكن يجزم أنّ والده يحافظ على الصلوات الأخرى كما يحافظ على صلاة الصبح "[22] .

أمّا الفعل المضارع فيمثل " مشروعا لإعادة صياغة الأحداث وقد تلاشى وميضها أو يكاد؛ فلا يُرى منها إلا ما يزيد الأنا رفعة في رتبته الاجتماعية والثقافية؛ في تواصل لافت ينمّ عن كفاءة هي بالأساس حصيلة إسقاط محور الفعل على محور السياق، هذا الإسقاط يختلف المتكلمون في مستوياته ودرجاته ، وبه تتحدّد كفاءتهم التواصلية"[23]. والأفعال المضارعة تحضر أكثر بعد أفعال الكينونة الناقصة من قبيل: " كنت أفعل ، كان يفعل لي..." لتؤشّر على حضور الأنا في سياقات السرد . وهكذا تبقى الأفعال في السيرية في دائرة تبدأ من الماضي وتنتقل إلى المضارع الذي تعود منه إلى الماضي ضمن سياق كتابة ذي خصوصية دالة . تقول الأديبة فدوى طوقان في سيرتها: " كان يأخذ مجلسه على واحدة من صخور الجبل الكلسية ، ويسمح لي بالانطلاق بينما ينصرف هو إلى التأمل. أمّا أنا فكنت أمضي إلى الشعاب القريبة ، أقفز كالمعزى من صخرة إلى صخرة ، وأتطلع حولي باحثة عن بقلة (الشمر) ذات الرائحة الزكيّة ... كما كنت ألملم باقة من زهر قرن الغزال وشقائق النعمان والبابونج ، وبين حين وآخر كان إبراهيم يلتفت ويوصيني بألّا أوغل بعيدا عنه"[24] . فالأفعال المضارعة: " يأخذ ، يسمح ، ينصرف ، أمضي ، أقفز ، أتطلّع ، ألملم ، يلتف ، يوصيني ، أوغل" حضرت جميعها بعد أفعال الكينونة: " كان ، كنت" لتشير إلى حضور الذات في سياقات المختلفة ضمن دائرة بدأت بالماضي وانتقلت إلى المضارع لتعود في دلالتها إلى الماضي من جديد.

2.السرد:

السيرة الذّاتية هي شكل من أشكال السرد لها مقام سردي ومقام كتابي، وما تتميز به السيرة الذّاتية هو هذا الالتباس القائم بين المقامين ؛ فالسارد نظريا ليس كائنا خياليا من صنع المؤّلف بل كائن حيّ حقيقي هو المؤّلف ذاته ، والقارئ ليس قارئا مفترضا بل هو قارئ حقيقي يخاطبه المؤّلف ويقدّم له حياته ويبرّرها أو يعظّم نفسه أو يعرض شهادته أو يعترف بأخطائه . كما أنّ هذا المؤّلف يتحول إلى سارد لأنّه سيخضع مروياته لمقتضيات الفن والكتابة ، وهذا ما يشكّل هويّة الأنا السردية في النص السيرذاتي في وجودها الذي يربط محطة تصل محطتين ؛ "

إحداهما تُحيل على لحظة الكتابة ، وتحيل ثانيهما على ماضي الكاتب نفسه فتغدو هذه اللحظة وصلا بين زمنين؛ زمن مضى قد انقضى وزمن حاضر يمثل لحظة الكتابة ومنطلق البداية في رحلة سرد تاريخ الأنا وتحولاته"[25]. لذا فقد جاء تقسيم الزمن في السيرة الذاتية إلى ثلاثي الأبعاد : ماض مستعاد(زمن الأحداث) ، وحاضر وهو زمن الكتابة : (غير متعين يدركه القارئ وحده) ، وشاهد عيان للزمن الحاضر: (أفعال وأقوال وأحداث) .

والبناء السردي في النصوص السيرية يقوم أساسا على انتقاء الأحداث مستعينا في ذلك بمنظومة وظائفية تهيكل العمل الفني ، وتجعله منتظما أفقيا في بنية قصه وأشكال توتّره . وأهم التقنيات المستعملة في ذلك هي: "التلخيص" و"الحذف" و"المشهد" و"الوقفة" ، و التي لها دور في لملمة شتات الأحداث واختصار المسافات الزمنية ، وتقديم المهم منها كما في "التلخيص" و"الحذف" ، وإبطاء الإيقاع السردي واستوقاف الزمان والمكان كما في"المشهد" و"الوقفة" للتذكر أو الوصف.

أ. التلخيص:

وهو أن يقوم السارد بتقديم أحداث ما وقعت في زمن طويل نسبيا في مساحة صغيرة بالنص لا تناسب ومساحة الحدث الزمنية . ويستعان بهذه التقنية حين تطول هذه الأحداث وتمتد وتكون تفاصيلها غير مهمة ؛ فزمن الأحداث فيها أكبر نسبيا من زمن القول حيث يلخص الكاتب فترات زمنية طويلة في عبارات قصيرة. وتقنية التلخيص تظهر براعة السارد في نقل حياة ممتدة في صفحات معدودات .

ب. الحذف:

يمثل الحذف " تقنية سردية يتجاهل بمقتضاها السرد فترات زمنية تدخل ضمنيا في إطار زمن القصة، فلا يذكرها ويمكن للقارئ أن يتوقعها من منطلق تتابع الأحداث ومتطلباته الزمنية وذلك بالتركيز على أحداث بعينها"[26]. ويلجأ الكاتب إليه لتسريع وتيرة السرد لتتمكن من اختزال الأحداث في كتاب سيرته ، فهو يكتفي بسرد مايراه مهما و له تأثير في حياته ، كما يكون مهما في ملء الفراغات، ودمجها بالفترات الحياتية الأكثر تفاعلا .

ج. المشهد:

تفيد هذه التقنية في تحقيق التطابق بين المدة التي تستغرقها الحادثة في وقوعها في الحقيقة وبين مدة سردها في النص ، فهناك تقارب نسبي بين الحكاية والمحكي، وغالبا ما يكون الخطاب حوارا أو خطابا .

د. الوقفة:

الوقفة تحدث في مواضع الوصف أو التأمل؛ فيغيب فيها الزمن لصالح المكان أو الإنسان ، ويظل القول متتابعا إيذانا بانقطاع الصيرورة الزمنية. ويشمل هذا النوع التحليل النفسي والتعليق والأحلام والخيالات والمونولوج ، و تتحدّد وظائفه بشكل عام في وظيفتين أساسيتين؛ " الأولى **جمالية** :يمثل فيها استراحة وسط الأحداث السردية ويكون له بعد جمالي /إبهاري، والثانية **توضيحية** دالة على معنى معين في إطار سياق الحكي مما يؤدي إلى إبطاء وتيرة السرد وكسر رتابته وثني مساره وتعطيل حركته"[27] .

3. ثنائيتا الزمان والمكان:

أ. المكان:

للمكان حضور بارز في الأعمال السيرية ، وهو يكتسي أهمية بالغة في بنائها وفي مرجعياته المختلفة وفي امتداداته وفي علائقه وعلاقاته ؛ فهو يؤدي " دورا بالغ الأهمية في تشكيل السيرة الذاتية بوصفها فنا سرديا ينهض على استيلاد مكان معيّن وحدّد له مرجعية واقعية معروفة ، لكنه في الوقت نفسه ينفتح في مجال تخييلي مقيّد تتأنسن فيه الكثير من صفاته وخصائصه وأجوائه ، وتأخذ بعدا بشريّا إنسانيا بمعيّة الشخصية/ الشخصيات التي تتحرّى الكشف عن

تشكيل سريتها"[28] . فوفق الثنائية السابقة واقعي/تخييلي تُبنى القيم الجمالية والرمزية لجغرافية المكان ؛ فهو يمثل تجذّر الذات من خلال مشاعر الانتماء وذكريات ربوع النشأة والمتقلب ، كما يمثّل - في الوقت نفسه - بعدا رمزيا جماليا تستحيل فيه التجربة الوجودية تشكيلا مصطبغ بجمالية التوظيف وعمق الرمز؛ فالمكان يخضع " بوصفه عنصرا بنائيا جوهريا في المغامرة الفنية للعمل الإبداعي إلى مجموعة من الممارسات الجمالية ، التي تضعه في قالب الفاعلية اللغوية للنص؛ إذ يتوغل في عمق الشبكة النصية وينشر علاماته وإشاراته على مساحتها ، ويلونها بألوانه ويضفي على طاقاتها الإبداعية استعدادات جمالية أكثر تركيزا وحضورا "[29].

وتنبع أهمية السيرة الذاتية في احتواء عنصر المكان السردي، وتتجلى صفاته وتظهر بتلازمه مع الزمن والشخصية، وذلك من خلال الحيز الذي يشغله من الوقائع والمواقف، والذي تحدث فيه اللحظة السردية . ونمثّل لذلك بسيرة إحسان عبس التي تلوح دلالات المكان وعلائقه من أوّل طريقها "غربة الراعي" ؛ فهناك سيرة مغترب أو لنقل اغتراب سيرة ، فإحسان/ الراعي الذي قضى طفولة هنيئة في قريته "عين غزال" التي عاش فيها طفولته متفتّحا علي البيئة الريفية الفلسطينية قضى حياته بعدها في شبابه وكهولته متنقّلا بين العواصم والمدن العربية طالبا ومعلّما . والاغتراب القصري الذي تعرّض له هو أعظم أنواع الاغتراب وأشدها وطأة ، يحيل صاحبها لاجئا منكوبا ليعيش أنواعا أخرى من الاغتراب كالثقافي والاجتماعي وغيرها ؛ " وفي عام 1952 أنهيت رسالتي للماجستير، وسافرت إلى مصر حيث ناقشتها لجنة من الأساتذة . وفي العام نفسه استرجعت الماضي في القرية وكأنّي أعيشه من جديد . وكانت بداية ذلك أنّي رأيت ابني يلعب في الحديقة تحت شجرة النيم ، وغبت عن الوجود لحظة ، فلم أر ابني وإنّما رأيت نفسي وبيادر القرية وأشجارها ، وعاد شريط الذكريات "[30] .

ب. الزمان:

يرتبط السارد مع الزمن بعلاقة جدلية يتأثر كل منهما بوجود الآخر فالزمن يحتويه بين مجالي البداية والنهاية أو الظهور والأفول ، وما بينهما من أحداث ومراحل التكوين وفقا لحركة حياته ، " فيزداد وجود المرء الإنساني كثافة وثراء كلما تقدم به الزمن وتدفق في مجرى شعوره بمروره سريعا أو بطيئا والمرتهن بالحالة الشعورية وبالتالي فإن عمر الإنسان الحقيقي لا يقاس بالسنوات، وإنما بالحالة الشعورية التي يمتلكها ويسيطر عليها، فالزمن الحقيقي هو الزمن النفسي وليس زمن الساعة"[31]. فالزمن زمنان[32] :

1. **زمن موضوعي/خارجي**: هو زمن دائري تعاقبي في حركته المتكرّرة كتوالي الفصول وانتظامها، وتعاقب لليل والنهار ، وبدء الحياة من الميلاد إلى الممات...

2. **زمن سيكولوجي/داخلي :** داخلي يقدّر بقيم متغيرة باستمرار بعكس الزمن الخارجي الذي يقاس بمعايير ثابتة فلكل إنسان زمنه النفسي الخاص المتصل بوعيه ووجدانه وخبرته الذاتية. وهو الزمن الأكثر أهمية في الأدب عموما وفي الأجناس السردية خصوصا لأنه زمن ذاتي داخلي مرتبط بالإنسان يختلف تبعا للأفراد والظروف والمتغيرات من جوانبها المختلفة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية.

ولتقريب الزمنين السابقين سنقدم صورا لهما من سيرة الأديبة الفلسطينية فدوى طوقان:

1. الزمن الموضوعي (الخارجي):

تنطلق سيرة فدوى في ترتيب تصاعدي من الولادة فالطفولة فالشباب فالنضوج ، وفي ذلك تنقل تفاصيل حياتها إلى قارئها ضمن إطار تراتيبي يشبه وقائع الفلم السينمائي . وقد بنيت هذه الأحداث في إطار زمني مؤرخ بالسنة وبالشهر وباليوم . تقول: " بين عالم يموت ، وعالم على أبواب الولادة خرجت إلى الدنيا . الإمبراطورية العثمانية تأخذ آخر أنفاسها ، وجيوش الحلفاء تواصل فتح الطريق لاستعمار غربي جديد 1917... في سبتمبر تم احتلال باقي فلسطين "[33]. وتقول:" في الساعة الخامسة من نهار الجمعة 1963/3/15 عدت إلى البيت لأجد برقية في انتظاري استلمتها من يد مسز فيتهام بقلب واجف "[34]

2. الزمن النفسي (الداخلي):

يتعطّل الزمن الخارجي في تسلسل أحداث السيرة لينطلق وجدان الكاتبة وخيالها إلى فضاء سرمدي مثقل برزايا واقع عربي يئنّ تحت وطأة الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الصعبة التي شهدها النصف الأول من القرن العشرين ، لتحاول فدوى الانسحاب من هذا الواقع المقيت إلى فُسح من الحلم والخيال ؛ " ...كم تابعت ببصري العصافير وهي تنطلق من عب الأشجار في صحن الدار ، وتمضي إلى ما وراء الجدران سارحة في الفضاء الفسيح ، حرّة من الخوف والحرمان . كنت أنظر إليها بحزن وأشتهي وأحلم بامتلاك جناحين طليقين ، ولكن صفعات الواقع كانت تهوي عليّ وتردني مستلبة الأحلام ، ضائعة الأمنيات"[35] . لكنّ المنى ترتدّ خاسئة حسيرة ! لكنّ تغييرا يقلب حياتها رأسا على عقب بعد ذهابها إلى انجلترا في مطلع الستينات ؛ تقول: " أحسست بإشراق غريب بداخلي فرح لا أملك تصويره بالكلمات ، كأنّ يدا خفيّة ضغطت فجأة على زر كهربائي غير مرئي في أعماقي فإذا بروحي تضيء بوهج باهر ما عرفت مثله من قبل . إشراقة صوفية تفصلني عن الماضي كلّه ، تمحو عن قلبي آثار الفظاظة

والخشونة والقسوة ، تطوقني برقي الأمان والسلام النفسي... وداعا يا زمان الجفاف والضيق وداعا يا زمن التمزّق والحيرة"[36] . فهي تركت كل ذلك الشقاء بعدما لاحت في سمائها بشائر الفرح والسعادة ، فبعدما فقدت في الوطن الحريّة والحب وجدتهما في الغربة وكان إحساسها يشبه: " فرحة السجين بلحظة الخروج إلى الفضاء والنور. لا يحسّ بجمال الحرّيّة وبروعة امتلاكها إلّا أولئك الذين حُرموا منها "[37]

4. السياق:

تنطلق النصوص السيرذاتية من خلفيات مختلفة ، معرفية وثقافية واجتماعية ونفسية ودينية وغيرها ، والتي تسهم في تحديد هوية النص ومختلف انتماءاته ومن ثَمّ تسمه بميسمها الخاص ؛ "إذ لا يقتصر إبداع سيرة الأنا على معرفة أشراطها التقنية فحسب، بل يشترط أيضا إدراك طبيعة المجتمع وواقع الحريات فيه، لذا يبدو هذا النوع من الكتابة أكثر ارتباطا بمحيطه وسياقاته التي يمكن أن يؤثر فيها أو يتأثر بها "[38] .

فالنص ينشأ بين أحضان واقع مؤثر يتفاعل مع سياقات مختلفة ينتج عنه دوال مرتبطة بمقامات خاصة ، ويفترض هذا النص رؤية شمولية عن علاقات شتى بين أنواع مختلفة تتباعد أو تتقارب حسب وظيفتها النصية ، ويتم الكشف عنها من خلال ربطها بالسياق الذي أُنتجت فيه انطلاقا من التفاعل الاجتماعي والمعرفي والثقافي الذي هو "مكون معرفي شمولي، يرصد حراك الإنسان وفاعليته في إبداعاته وإنجازاته، بتخطيطات ذكية ودوافع عقلية ومواقف فكرية ونوازع شعورية متنوعة ومعقدة "[39] .

فالمرجعيات المختلفة للنص أرضيات أسست لكتابته فكريا وأخلاقيا وروحيا ، فتلك المرجعيات " في ارتباطها بالعصر وما له من خصوصيات، بمعطياته البيئية وقيمه الموروثة وحصاد النوع الذي ينتمي إليه الإبداع ، وطبيعة النزعات والميول وقيم المبدع الذاتية، تمارس جميعها تأثيرات في الإنتاج الفني"[40] . ليتم في الأخير الالتحام بينها وبين النصوص السيرذاتية "وفق ضروب كثيرة ومعقدة من التواصل والتفاعل ، وليس المرجعيات وحدها هي التي تصوغ الخصائص النوعية للنصوص [...] وغالبا ما يدفعان كلاهما ، المرجعيات والنصوص على حد سواء بتقاليد خاصة ؛ هي في حقيقتها أبنية تترتب في أطرها العلاقات والأفكار السائدة "[41].

5. الخيـال:

عرفنا أن البناء السردي في للنصوص السيرذاتية يقوم أساسا على انتقاء الأحداث ، وهذه الأحداث المنتقاة ليست في الحقيقة هي حياة الكاتب بقدر ما هي إعادة صوغ لها كتابة وبعث لحيثياتها . وفي هذا المقام تحضر بصمة الخيال الذي يسعف صاحب السيرة أثناء نقل كرونولوجيا حياته ، فالسمة الأساسية التي رافقت مفهوم الإبداع هي "ما يتضمنه من عناصر تخييلية قادرة على تحويل انتباه القارئ، عن كل ما هو يومي مبتذل إلى ما هو مثير وجديد ومجاوز للواقع المألوف، لهذا السبب لعب الخيال دورا أساسيا في تقدير قيمة النتاج الأدبي ودرجة اتساع مجال تداوله أو استهلاكه "[42] . والتخييل ضروري في بناء السيرة الذاتية ، وغيابه يؤدي إلى السقوط في التاريخية المجرّدة في رواية الحوادث ؛ "فكاتب السيرة الذاتية وان كان معنياً أساساً باستجلاء صيرورة ذات إنسانية بعمقها النفسي ، ومحدداتها الاجتماعية ، وتكوينها الثقافي ، على خلفية واقع تاريخي/موضوعي إلا انه لا يقوم بوظيفة المؤرخ إلا بحدود ضيقة ، لأنه يسعى إلى رؤية ذاته ؛ أي إعادة تنظيم وقائع حياته بما يضفي عليها معنى يُريده "[43] . كما أن الإسراف فيه يؤدّي إلى ابتداع عالم جديد متخيل ومشتهى لا واقع له فتتحول بذلك السيرة الذاتية إلى عمل سردي تخييلي روائي له قوانينه السردية الخاصة .

ولباب القول في التخييل أنه يكون بين ذلك قواما ؛ فكاتب السيرة الذاتية يسلك بين المؤرخ والأديب مسلكا وسطا يستعير بعضاً من وسائلهما وتقنياتهما وأدواتهما ليدخل حقلاً آخر ويقول شيئاً مختلفاً ، " فالسيرة الذاتية تنتمي إلى الأجناس السردية ، وتأخذ منها بعض طرائقها وأشكالها لكنها تختلف عنها في نواحٍ عديدة منها ، وأهمها ، الطابع الذاتي ، والصدق الواقعي/التاريخي"[44]. وهذا معناه أن السيرة الذاتية تتدرج نصوصها من نقطة متوسطة على كلا الجانبين ؛ بعضها يتجه نحو الشفافية المرجعية في وضع الوقائع في سياقها الزمكاني ، وبعضها في الاستبطان والتحليل وقراءة ما بين سطورها وإبراز تجلياتها والملابسات التي رافقتها ، " فتغدو بناءً سردياً تسجيلياً يستخدم فيه الكاتب التتابع المنطقي للحوادث في المسعى الجمالي فيتدرج من الجهة الأخرى تحت راية الخيال , حتى يقترب من جهة السرد التخييلي/ الروائي عندما تستجيب سرديات السيرة الذاتية لمبدأ الرغبة الذي تستبدله بمبدأ الواقع"[45]. ونمثّل لذلك بما ورد في سيرة

يحي حقّي عندما تحدّث عن ملك الموت وهو يقبض روح المرأة : " وطرق الباب طارق لم يسمعه أحد إلّا طفلتها الرضيعة فها هو ضحكها ينقلب نحيبا لا ينقطع أربع أيام. من القادم؟ أيّها الإدراك المكنون في جسم رضيع: انطلق ولو أهلكت البوح! ماذا رأيت؟ والطارق صابر بالباب ، فلما جاءه الإذن دخل علينا ، فانبعثت منها رائحة صلصال مبتل بالماء . لم تره عيوننا ، ولكن أرواحنا شعرت بقدوم ضيف غريب: عليه بشاعة العدم ، وجمال الخلقة الكاملة، فيه إشراق الحكمة في ذاتها ، وإظلام عبث جدواها"[46].

فالتلاقح بين المسحة الواقعية والحبك الجمالي " يفسر لنا الثراء الشكلي والأسلوبي لهذا الجنس الأدبي ، كما يفسّر لنا سبب عدم إمكانية ضبطه بتعريف جامع مانع ، مهما اتسعت القاعدة النصية التي تسنده ، والهاجس العلمي الذي يحركه ، والأدوات المنهجية التي يتوسل بها ، إلا من حيث أن موضوعه "ذات الكاتب" ، أو أسلوبه "القص الأدبي" ".[47]

محصول القول:

السيرة الذاتية هي شكل من أشكال السرد يقوم به شخص واقعي بالكشف عن سيرة حياته من خلال كتابة إبداعية تدور حول حياته الذاتية وتاريخ شخصيته ، وتفاعل هذه الشخصية مع شخصيات أخرى أو عوامل المجتمع الذي تعيش فيه. ويقوم هذا العمل الفني على انتخاب حلقات معينة مركزة من سيرة الحياة، وحشدها بأسلوبية خاصة تضمن له صناعة نص سردي متكامل ذا مضمون مقنع ومثير ومسلّ. والنصوص السيرذاتية تقوم على قوالب خاصة في بناء تشكيلها اللغوي نجملها في:

1) لغة السيرة الذاتية تبنى على نظام أسلوبي يفارق أجناس السرد الأخرى كما في العنوان الذي من خلال إغوائيته وإثارته لفضول المتلقي ، أو من خلال دلالته على كثير من الأمور الباطنية والرؤى والأفكار التي تُطرح في العمل . وكما أنّ وظائفه تتعدد فإنّ نجد أنّ أشكاله تتنوّع هي الأخرى، فمنها ما يحمل دلالة مباشرة ، ومنها ما يحمل رمزية معينة ، ومنها ما يحمل إسما صريحا...

2) أثارت الضمائر وموقعها في النصوص السير ذاتية شغف الدارسين باختلاف حقولهم المعرفية للوقوف على هوية النص واتصاله بصاحب النص حينما يتقمص ثوب نفسه . ويأتي

ضمير التكلّم "أنا" سمة فارقة في أدب السيرة الذاتية يمنحها خصوصيتها النوعية ، والتي تتحدّد بوساطة تمفصل مستوي "الإحالة" و"الملفوظ".

3) أمّا بناء الأفعال في النصوص السير ذاتية فيتكوّن من حركتين متناوبتين؛ حركة استرجاعية تذكارية ترتدّ إلى الماضي وحركة تأملية تلتصق باللحظة الآنية فتسيطر الصيغ الماضية على زمن الارتداد والتذكّر ، والصيغ المضارعة على الزمن الآني التأملي. وفي الفعل الماضي يأتي الفعل الناقص "كان" فعلا مركزيا في بناء النصوص السيرية لدلالته الصيرورة المنقضية التي ترتبط بالحكي الاسترادادي . أما الأفعال المضارعة فتحضر كثيرا بعد أفعال الكينونة الناقصة لتؤشّر على حضور الأنا في سياقات السرد ، ولتشكّل مشروعا لإعادة صياغة الأحداث وقد تلاشى وميضها أو يكاد.

4) البناء السردي في النصوص السيرذاتية يقوم أساسا على انتقاء الأحداث مستعينا في ذلك بمنظومة وظائفية تهيكل العمل الفني وتجعله منتظما أفقيا في بنية قصه وأشكال توتّره . وأهم التقنيات المستعملة في ذلك هي: "التلخيص" و"الحذف" و"المشهد" و"الوقفة" ، و التي لها دور في لملمة شتات الأحداث واختصار المسافات الزمنية ، وتقديم المهم منها كما في "التلخيص" و"الحذف" ، وإبطاء الإيقاع السردي واستوقاف الزمان والمكان كما في"المشهد" و"الوقفة" للتذكر أو الوصف.5

5) يحضر المكان بارزا في الأعمال السيرية ، وهو يكتسي أهمية بالغة في بنائها وفي مرجعياته المختلفة وفي امتداداته وفي علائقه وعلاقاته ، وفي الوقت نفسه ينفتح في مجال تخييلي مقيّد تتأنسن فيه الكثير من الصفات والخصائص والأجواء ؛ فوفق الثنائية واقعي/تخييلي تُبنى القيم الجمالية والرمزية لجغرافية المكان من خلال تجذر الذات ، وفي أبعاده الرمزية والجمالية .

6) عنصر الزمن يرتبط مع السارد بعلاقة جدلية يتأثر فيها كلّ منهما بالآخر ، ولا يرتبط هذا السارد بالزمن من خلال أحداث البداية والنهاية فقط ، وإنّما يتجاوز ذلك ليتعلّق بنفسه وما يتملكها من أحاسيس ومشاعر شتّى . لتكون المحصلة زمنين: أولهما موضوعي خارجي يتمثل في حركة الكون الدائرية المنتظمة كتوالي الفصول وانتظامها، وتعاقب لليل والنهار ، وبدء الحياة إلى

الممات. وثانيهما نفسي داخلي وهو زمن ذاتي مرتبط بالإنسان يختلف تبعا للأفراد والظروف والمتغيرات من جوانبها المختلفة .

7) تنطلق النصوص السيرذاتية من خلفيات ومرجعيات مختلفة ؛ معرفية وثقافية واجتماعية ونفسية ودينية وغيرها ، والتي تسهم جميعها أو بعضها في تحديد هوية النص ، ومختلف انتماءاته ومن ثَمّ تسمه بميسمها الخاص . وهذه المرجعيات المختلفة للنص أرضيات أسست لكتابته فكريا وأخلاقيا وروحيا في ارتباطها بالعصر وما له من خصوصيات ، وبمعطيات البيئة والقيم الموروثة ، أو طبيعة النزعات والميول أو قيم المبدع الذاتية.

8) فيما يتعلق بآلية كتابة الأنا فإنّ فعل الكتابة فيها يتموقع بين ذاتية التخييل والذاكرة الحالمة التي قد ينتابها النسيان؛ فالتخييل ضروري في بناء السيرة الذاتية ، وغيابه يؤدي إلى السقوط في التاريخية المجرّدة في رواية الحوادث . كما أن الإسراف فيه يؤدّي إلى ابتداع عالم جديد متخيل ومشتهى لا واقع له ، وهذا التلاقح بين المسحة الواقعية والحبك الخيالي يفسر لنا الثراء الشكلي والأسلوبي لهذا الجنس الأدبي .

الهوامش:

[1] : محمد صابر عبيد : السيرة الذاتية الشعرية، ط1 ، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، 2007 ، ص 109 .

[2] : نفسه ، ص 110 .

[3] : لأنه لا يُعقل أن يسرد صاحبها حياته كلها بجميع تفاصيلها .

[4] : معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب : مجدي وهبة وكامل المهندس ، مكتبة لبنان، للطباعة النشر، 1977 .

[5] : عبد القادر الشاوي :الكتابة والوجود –السيرة الذاتية في المغرب–، أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء /بيروت ، 2000 ، ص15 .

[6] : بسام قطوس ، سيمياء العنوان ، مكتبة كتانه ، إربد، ط1 ، 2001 ، ص 45–46.

[7] : أمل التميمي ، السيرة الذاتية النسائية في الأدب العربي المعاصر–دراسة في نماذج مختارة–، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 2005، ص189 .

[8] : بسام قطوس ، السابق ، ص 52 .

[9] : نفسه ، ص 39 .

[10] : فيليب لوجون :السيرة الذاتية –الميثاق والتاريخ الأدبي، تر عمر حلي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت/الدار البيضاء ، ط 01 ، 1994 ، ص29–30 .

[11] : رحلة جبلية رحلة صعبة ، دار الشروق ، عمّان ، ط **2** ، **1985** ، ص **12** .

[12] : بدايات ، دار الفارابي ، بيروت ، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، ط **1** ، **2004** ، ص **15** .

[13] : ناصر بركة ، أدبية السير الذاتية في العصر الحديث – بحث في آليات اشتغال النصوص ومرجعيتها الفاعلة– ، بحث مقدم لنيل درجة دكتوراه العلوم في الأدب العربي الحديث ، قسم اللغة العربية وآدابها ، كلية الآداب واللغات ، جامعة الحاج لخضر– باتنة– ، الجزائر ، 2013 ، ص 91 .

[14] : حصاد السنين ، دار الشروق ، القاهرة ، ط**3** ، **2005** ، ص **19** .

[15] : ينظر: عبد المالك أشهبون : من خطاب السيرة المحدود إلى عوالم التخييل الذاتي الرحبة، مطبعة أنفو/ برانت، فاس، المغرب، د–ط ، 2007 ، ص78 . نقلا عن: ناصر بركة ، أدبية السير الذاتية في العصر الحديث ، ص 91 .

[16] : سعيد يقطين، القراءة والتجربة، دار الثقافة، المغرب، ط 01 ، 1985 ، ص 98 – 99 .

[17] : ناصر بركة ، السابق ، ص 91 .

[18] : أحمد طالب ، مفهوم الزمان ودلالته في الفلسفة والأدب، دار الغرب للنشر والتوزيع ، وهران، الجزائر، د–ط ، 2004 ، ص73

[19] : نواري سعودي : في تداولية الخطاب الأدبي – المبادئ والإجراء ، بيت الحكمة للنشر والتوزيع ، العلمة ، الجزائر، ط1 ، 2009 ، ص22 .

[20] : ناصر بركة ، السابق ، ص 105 .

[21] : عبد القادر الشاوي ، السابق ، ص49 .

[22] : غربة الراعي ، دار الشروق ، عمّان ، ط**1** ، **2006** ، ص**16** .

[23] : نواري سعودي ، السابق ، ص30 .

[24] : السابق ، ص **61** .

[25] : ناصر بركة ، السابق ، ص 70 .

[26] : عبد العاطي إبراهيم هواري، لغة التهميش –سيرة الذات المهمشة، دائرة الثقافة والإعلام ، الشارقة ، 2008، ص83 .

[27] : حميد لحمداني :بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء، المغرب، ط 03 ، 2000 ، ص79 .

[28] : محمد صابر عبيد ، التشكيل السيرذاتي – التجربة والكتابة **3**– ، دار نينوى ، دمشق ، د–ط ، **2012** ، ص **97** .

[29] : محمد صابر عبيد :المغامرة الجمالية للنص الشعري ، جدارا للكتاب العالمي ، عُمان ، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن ، ط **1** ، **2008** ، ص**216** .

[30] : غربة الراعي ، ص **206** .

[31] : مها حسن القصراوي ، الزمن في الرواية العربية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ط**1** ، **2004**، ص**149** .

[32] : نفسه ، ص **23** وما بعدها .

[33] : رحلة جبلية رحلة صعبة ، ص **16** .

[34] : نفسه ، ص **208** .

[35] : نفسه ، ص **130** .

[36] : نفسه ، ص **172** .

[37] : نفسه ، ص **174** .

[38] : نفسه ، ص 186 .

[39] : عبد القادر الرباعي :تحولات النقد الثقافي، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، ط 01،2007 ، ص15 .

[40] : صلاح رزق ، أدبية النص ، دار غريب للنشر، القاهرة ، 2002 ، ص181.

[41] : عبد الله إبراهيم :السردية العربية الحديثة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 01 ، 2003 ، ص51 .

[42] : حميد لحميداني ، القراءة وتوليد الدلالة ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء /بيروت ، ط1 ، 2003 ، ص 11 .

[43] : شيماء عبد الحسين ابراهيم ، أنماط السيرة الذاتية–دراسة وتحليل– ، مركز دراسات الكوفة ، ع 29 ، 2013 ، ص 85 .

[44] : نفسه ، ص 86

[45] : جابر عصفور ، زمن الرواية ، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق ، ط01 ، 1999 ، ص 177 .

[46] : كناسة المكان ، إعداد ومراجعة فؤاد دوارة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، **1991** ، ص **75** .

[47] : شيماء عبد الحسين إبراهيم ، السابق ، ص 87 .